مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (5) العدد (6) 2021
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (6) 2021

مفهوم السّعي في مشاهد الصّيد (دراسة نماذج من الشّعر الجاهليّ)

أ.د. مصطفى حسن حدّاد *

مارلين منير معلاّ **

(تاريخ الإيداع 24 /3 /2021. قُبِل للنشر في 8/2 /2021)

□ ملخّص □

تتكرّر في الشّعر الجاهليّ مشاهد الصّيد، ومعارك تنشب بين كلاب الصّيد والطّريدة في لوحاتٍ شعريّةٍ تحمل دلالاتٍ وأبعاداً استوقفت البحث، وينشد البحث بيان السّعي الكامن في نماذج من تلك اللّوحات، ويرى أنَّ شعراء العصر الجاهليّ عبّروا من خلالها عن تجاربهم في الحياة، ومرادهم الّذي جهدوا إلى تحقيقه.

وقد اختار البحث دراسة نماذج من شعر زهير بن أبي سُلمى، ولبيد بن ربيعة العامريّ، فكلاهما ضمّن معركة الحيوان انعكاس تجاربه الحياتيّة، مبرزاً رؤاه وأهدافه .

و يدرس البحث معركة البقرة الوحشيّة، ومعركة الثّور الوحشيّ مع كلاب الصّيد، فهي انعكاسٌ لجانبٍ من رحلة حياة الإنسان بما فيها من صعابٍ، وفقدٍ، وتعرّضٍ للغدر، ومواجهة الشّرّ طلباً للبقاء، ويُعنَى البحث بدراسة الأنماط المتكرّرة في شعرهما، فهي كثيرةٌ منها: السّعي إلى امتلاك صفات القوّة والسّرعة، والقدرة على تجاوز الصّعاب، والتّفوّق على الخصوم، والانتصار على الأقوياء، لتحقيق البقاء، وإثبات ذواتهم الجامحة إلى السّمو والرّفعة، والسّعي الدّؤوب إلى اجتياز الصّحراء، والوصول إلى مورد الماء والأرض المعشوشبة الخضراء حيث الأمان، والخير.

الكلمات المفتاحيّة: السّعي، الأنماط المتكرّرة، البقاء، السّمو.

* أستاذ في قسم اللّغة العربيّة وآدابها ، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة ، سوريّة.

** طالبة دراسات عليا (دكتوراه)، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة تشرين اللاذقيّة، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (5) العدد (6) 2021
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (6) 2021

The Concept of Pursuit in Hunting Scenes (Studying Examples of Per-Islamic Poetry)

Prof. Moustafa Hassan Haddad*
Marleen Mounir Moualla**

(Received 24/3 /2021. Accepted 2/8/2021)

□ ABSTRACT □

Hunting scenes are repeated in pre-Islamic poetry, and battles are broken out between hunting dogs and preys in the form of poetic paintings that carried connotations and dimensions which have stopped the research. Therefore, the study seeks to demonstrate the pursuit inherent in examples of those paintings, and it sees that pre-Islamic poets expressed their experiences in life and the goals they tried to achieve through such paintings.

The research has chosen to study examples of the poetry of Zuhair Bin Abi Salma and Lubaid Bin Rabi'a Al-Ameri, since both of them have included the battles of animals as a reflection of their life experiences, highlighting their visions and goals.

After study and analysis, the research found out that the battle of a feral cow or a wild bull with a hunting dog is a reflection of one aspect of the human life journey with all its difficulties, loss, exposure to treachery and the confrontation of evils for survival. The research has reached the conclusion that there are many recurring patterns in their poetry, including: striving to possess the qualities of strength and speed, the ability to overcome difficulties, superiority over opponents, victory over the strong to achieve survival, proving their unruly self to transcendence and supremacy, diligent striving to cross the deserts, to reach the water resources and the green grassland where safety and goodness are present.

KEY WORDS: pursuit, the recurring patterns, survival, supremacy.

المقدّمة:

يعدُّ الصّيد من أهمّ النّشاطات الّتي مارسها الإنسان في العصر الجاهليّ، وشُغِفَ بها؛ إذ وفّر له المأكل، والملبس، والمتعة، حتّى شهدنا شغف العرب بِـ " الصّيد في عامّة عصورهم، فذلك لأنّه ضربٌ من

* Professor – Department of Arabic Literature – Faculty of Arts and Humanities – Tishreen University – Lattakia – Syria.

** Graduate Student (Ph.D.)– Department of Arabic Literature – Faculty of Arts and Humanities – Tishreen University – Lattakia – Syria.

ضروبِ الرّزق، ومتعة من متع النّفس، ولون من ألوان الحرب أيّام السّلم، وهم ما انفكّوا منذ أقدم عصور جاهليّتهم يألفون الغزوات والغارات"[1]، وقد خَبِروا أحوال الحيوان، ووصفوا رحلات صيدهم في أشعارهم مدققين في وصف الطّبيعة والصّياد والطرائد، لكنَّ الشّاعر الجاهليّ ضمّن رحلة الصّيد أبعاداً أخرى؛ إذ صوّر صراع الطّرائد مع الصّيّاد وكلابه الشّرسة، وإصرار الطّريدة على البقاء، مفصّلاً في وصف أجواء القلق والتّوتّر، فالصّياد والكلاب في سعي إلى نيل الفريسة من أجل البقاء، لكنّه بقاءٌ يقوم على فناء الآخر، بينما تسعى الطّريدة إلى تحقيق بقائها، وإيجاد الاستقرار والأمان، وكأنّ الشّاعر يعبّر في لوحته الفنّيّة عن موقفه من قضيّةٍ أرّقته، وهي قضيّة الحياة والموت، ويرفض البحث الرأي القائل إنَّ " وصف الصّيد والطّرد في العصر الجاهليّ لم يكن هدفاً في حدّ ذاته، وإنّما كان الشّاعر يلجأ إليه استطراداً"[2].

و لا ينكر البحث الجهود السّابقة، فقد درس الدّكتور وهب روميّة في كتابه "الرّحلة في القصيدة الجاهليّة" نقاط التّشابه والاختلاف في وصف شعراء العصر الجاهليّ رحلة الحيوان، ومقال موسوم بعنوان" معركة الحيوان الوحشيّ في قصائد جاهليّة" للدكتور خالد يسير أبرز من خلاله نظرة المجتمع الجاهليّ إلى المرأة ورأى أنّها نظرة مخالفة _إلى حدٍّ ما_ لما هو سائد آنذاك.

ينشد البحث دراسة نماذج من مشاهد الصّيد، وقد اختار مشهدين : معركة البقرة الوحشيّة، ومعركة الثّور ضدَّ الصّيّاد وكلابه، لرصد مفهوم السّعيّ، فرحلة البقرة الوحشيّة هي بحثٌ عن مكانٍ فيه الاستقرار والأمان والماء والعشب، وما يعتري بحثها من صعابٍ ومصائب تطال فلذة كبدها، وتحاول النّيل منها، ليصبح جُلّ همّها الخلاص والحفاظ على حياتها، أمّا معركة الثّور فهي تعبيرٌ عن حالة مواجهة الصّعاب بالقوّة، وتحقيق النّجاة بعد معركةٍ عنيفةٍ يثبت بها ذاته وحقّه في البقاء، ويبدو أنّ المعركتين تعكسان رؤى الشّاعر، ومساعيه في الحياة، ونظرته إلى بعض القضايا الكبرى من مثل الحياة والموت.

وقد نهجَ البحثُ في دراسةِ النّصوصِ، وتحليلها، وقراءةِ الشّواهد الشّعريّة منهجَ الدّراسةِ الفنيّةِ، لاعتقادهِ أنَّ هذا المنهجَ قادرٌ على إبراز جماليّةِ السّعي في مشاهد الصّيد؛ ذلك أنَّ (المنهج الفنيّ وسيلةٌ لتحليلِ الأدبِ، تعتمدُ حساسيّةَ الإبداعِ للكشفِ عن مباهجِ النّصّ، بوصفه معطىً إبداعيّاً مكتنزاً بحضارةِ الجمال الأزليّ)[3] ، واستفاد من بعض معطيات المنهج النّفسيّ.

اهتمَّ شعراء العصر الجاهليّ بوصف النّاقة، فهي سبيلهم إلى تجاوز الصّحراء، لذا حرصوا على ذكرها في قصائدهم، والتّفصيل في سماتها الشّكليّة والنفسيّة، وأسبغوا عليها صفات القوّة، والصّلابة، والسّرعة في العدو، والقدرة على تحمّل قسوة الطّبيعة، وغدت " النّاقة في الشّعر إحدى الوسائل الموضوعيّة الّتي يقيم بها الشّعر نموذجه الإنسانيّ في مواجهة الواقع، ففي مواجهة الصّحراء نجد النّاقة وسيلةً لاجتياز المهامه والقفار، فهي وسيلةُ حركته، وفي مواجهة الهم والجور نجد النّاقة وسيلة للانطلاق"[4]، ومن الأنماط الّتي اعتمدها معظم

([1])– البيزرة، بازيار العزيز بالله الفاطميّ، نظر فيه وعلّق عليه محمّد كرد علي، مطبوعات المجمّع العلميّ العربيّ، دمشق، 1953م، ص4،5.

([2])– الصّيد والطّرد في الشّعر العربيّ حتّى نهاية القرن 2هـ، د. عبّاس مصطفى الصّالحيّ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت_ لبنان، ط1، 1981م، ص200.

([3])– الخطاب الإبداعيّ الجاهليّ والصّورة الفنيّة (القدامة وتحليل النصّ)، د. عبد الإله الصّائغ، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م، ص291.

([4])– الأدب الجاهليّ (قضايا، وفنون، ونصوص)، د. حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2001م، ص 452.

شعراء العصر الجاهليّ تشبيه النّاقة بحيوانٍ وحشيٍّ، ليضفي عليها صفاتٍ استثنائيّةً أراد امتلاكها ليحقق مراده في الحياة، فتبدأ قصة الحيوان الوحشيّ ليضمّنها أبعاداً تعكس سعيه ورؤاه.

1-السّعي في مشهد صيد الثّور الوحشيّ:

يسيطر على قصّة الثّور الوحشيّ صراعٌ عنيفٌ؛ إذ تبدأ أحداثها ببحثه عن شجرة أرطاة تحميه من برد الشّتاء، وهو بحثٌ عن الاستقرار والأمان، لكنّه يقضي وقتاً صعباً في مواجهة قسوة الطّبيعة، وينتظر صباحاً يحمل له بدايةً جديدة يأمل أن تمنحه مراده من الدّفء والاستقرار، فيُفاجَأ بخصمٍ أكثر عنفاً من الطّبيعة؛ إذ " يطلع النّهار، وتبدأ معه الحركة والسّعي من أجل الحفاظ على الحياة واستمرارها، الكلاب تبحث عن الطّريدة، والثّور عن الحياة، كلاهما يبحث عن هدفٍ واحد يقفان منه على طرفي نقيضٍ"[1]، فالصّيّاد يطلق كلابه المدرّبة على الصّيد لتنال من الثّور، في معركةٍ غير متكافئةٍ من حيثُ العددُ، وربّما عكس مصير الثّور في تلك المعركة رؤى الشّاعر ذلك أنَّ الثّور قد يكون مثالاً " للحياة، والتّفاؤل بها يُعبَّر عنه بنجاة هذا الحيوان من الكلاب، والرّماة، واليأس منها ينتهي بهذا الحيوان إلى ملاقاة حتفه على يد الصّائد"[2].

يصف لبيد رحلة الثّور الوحشي قائلاً:[3]

1-فَصَدَدْتُ عَنْ أَطْلَالِهِنَّ بِجَسْرَةٍ عَيْرَانَةٍ كَالعَقْرِ ذِي البُنْيَانِ
2-فَقَدَرْتُ لِلْوِرْدِ المُغَلَّسِ غُدْوَةً فَوَرَدْتُ قَبْلَ تَبَيُّنِ الأَلْوَانِ
....
3-كَسَفِينَةِ الهِنْدِيِّ طَابَقَ دَرْءَهَا بِسَقَائِفٍ مَشْبُوْحَةٍ وِدِهَانِ
4-فالتَام طَائِقُهَا القَدِيْمُ فَأَصْبَحَتْ مَا إِنْ يُقَوِّمُ دَرْءَهَا رِدْفَانِ
5-فَكَأَنَّهَا هِيَ يَوْمَ غِبَّ كَلَالِهَا أَوْ أَسْفَعُ الخَدَّيْنِ شَاةُ إِرَانِ
6-حَرِجٌ إِلَى أَرْطَاتِهِ وتَغَيَّبَتْ عَنْهُ كَوَاكِبُ لَيْلَةٍ مِدْجَانِ
7-يَزَعُ الهَيَامَ عَنِ الثَّرَى ويَمُدُّهُ بُطْحٌ تَهَايُلُهُ عَلَى الكُثْبَانِ
8-فَتَدَارَكَ الإِشْرَاقُ بَاقِي نَفْسِهِ مُتَجَرِّداً كَالمَائِحِ العُرْيَانِ
9-لَوْ كَانَ يَزْجُرُهَا لَقَدْ سَنَحتْ لَهُ طَيْرُ الشِّيَاحِ بِغَمْرَةٍ وطِعَانِ
10-فَغَدَا عَلَى حَذَرٍ مُوَرَّثُ عُدَّةٍ يَهْتَزُّ فَوْقَ جَبِيْنِهِ رُمْحَانِ
11-حَتَّى أُشِبَّ لَهُ ضِرَاءُ مُكَلِّبٍ يَسْعَى بِهِنَّ أَقَبُّ كَالسِّرْحَانِ
12-فَحَمَى مَقَاتِلَهُ وذَادَ بِرَوْقِهِ حَمْيَ المُحَارِبِ عَوْرَةَ الصُّحْبَانِ

---

[1]()- معركة الحيوان الوحشيّ في قصائد جاهليّة، د. خالد يسير، دراسات في اللّغة العربيّة وآدابها، مجلّة نصف سنويّة دوريّة محكّمة تصدر عن جامعتي سمنان إيران_تشرين سوريا، العدد18، 2014م، ص4.

([2])- الحياة والموت في الشّعر الجاهليّ، د. مصطفى عبد اللّطيف جياووك، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرّيّة للطّباعة، بغداد_ العراق، 1977م، ص 302.

([3])- ديوانه، شرح الطّوسيّ، قدّم له وو ضع هوامشه وفهارسه د. حنّا نصر الحتّيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط1، 1993م، ص268، 273. جسرة: ضخمة، العقر: القصر، الطّائق: الفرجة بين خشبتين، ردفان: ملاحان،_ _كلالها، إعياؤها، مدجان: دائمة المطر، بطح: مكان سهل ليّن، المائح: المبتل بالماء، الشّياح: القتال، أشبّ: أتيح، أقب: صائد، روقه: قرنه، يختلها: يطعنها، انجلت: انكشفت، الصّوان: صون الثّوب من العيب، ربذاً: سريعاً.

13-شَزْراً عَلَى نَبْضِ القُلُوْبِ وَمُقْدِماً فَكَأَنَّمَا يَخْتَلُّهَا بِسِنَانِ
14-حَتَّى انجَلَتْ عَنْهُ عَمَايَةُ نَفْرِهِ فَكَأَنَّ صَرْعَاهَا ظُرُوفُ دِنَانِ
15-فَاجْتَازَ مُنْقَطَعَ الكَثِيْبِ كَأَنَّهُ نِصْعٌ جَلَتْهُ الشَّمْسُ بَعْدَ صِوَانِ
16-يَمْتَلُّ مَوْقُوراً ويَمْشِي جَانِباً رَبِذاً يُسَلِّي حَاجَةَ الخَشْيَانِ

يسعى لبيد إلى تجاوز الماضي، ونجده يرفضه (صددتُ عن أطلالهنَّ)، كأنّه يريد الانعتاق منه، للانطلاق إلى بدايةٍ جديدةٍ، ومستقبلٍ واعدٍ بتحقيق الطّموحات، ويعتمد في انطلاقه على ناقةٍ تجمعُ صفاتٍ تمنحه القدرة على بلوغ مبتغاه (جسرة، عيرانة)، فهي ضخمةٌ نشطةٌ سريعةُ العدوِ، تشبه القصر الضّخم (كالعقر ذي البنيان)، يضفي عليها صفات القوّة والصّلابة، والصّمود في وجه ظروف الصّحراء القاسية، وربّما أراد لرحلته على تلك النّاقة أن تكون مريحةً منعّمةً بالتّرف والرّخاء، فتشبيه النّاقة بالقصر قد يضفي تلك السّمات على ناقته ورحلته.

إنّهُ يتّجه حيث الماء ويختار الورود أوّل الصّباح قبل شروق الشّمس ما يدلُّ على استعجاله لنيل مراده، وتفاؤله، وإقباله على الحياة خصبةً يفيض الخير فيها، ويشبّه ناقته بالسّفينة، ليعمّق صفات القوّة، وضخامة البنيان، والقدرة على اقتحام الأهوال، فسفينة الهنديّ من أعظم السّفن في دقّة بنائها، وإحكام صنعها، يهتم صانعها بإغلاق شقوقها، بألواحٍ خشبيّةٍ صوناً لها ولركّابها، فتتمُّ أصعب الرّحلات وأخطرها من دون تعرّضها للأذى، وقد اختارها خير مثالٍ ليشبّه ناقته بها، لأنّه أراد لها أن تجتاز الأهوال، فيحقق بذلك مراده ويحفظ بقاءه.

أمّا ناقته في لحظات تعبها فيشبّهها بالسّفينةِ الّتي جابت البحار، وأنجزت عملها، فاستكانت ترتاح من عناء السّفر، أو يشبّهها بالثّور، ليضفي عليها صفات الرّشاقة، والسّرعة، والنّشاط، ثمَّ يلتفت إلى قصّة ذلك الثّور، فيصوّر لجوءه إلى شجرةٍ (حرج) يحتمي بها من ظروف الطّبيعة القاسية في ليلةٍ عاصفةٍ غيومها سوداء دائمة المطر، فالثّور لا يقوى على الصّمود في تلك الظّروف، وكأنّه في مأزقٍ يريد الخلاص منه، وربّما عبّر سواد تلك اللّيلة، وحجب النّجوم المضيئة عن همٍّ يسيطر على الثّور ويؤرّقه، فقضى تلك اللّيلة يجمع الرّمل المبلل، لكنّه سرعان ما يسيل ، فيغدو عمله مرهقاً من دون نتائج مفيدة، لكنَّه يأمل بانقضاء الكربة، وبقائه سالماً، فالإشراق يحمل دلالات البداية الجديدة المليئة بالتفاؤل من بعد الصّعاب (تدارك الإشراق باقي نفسه)، وكأنّه التقط أنفاسه، وتلمّس نجاته؛ إذ كاد برد اللّيلة السّابقة يودي به، فيصوّر حالته وشدّة الخطر الّذي واجهه (متجرّداً كالمائح العريان)، يشبّه الثّور بشخصٍ خلع عنه ملابسه في جوٍّ باردٍ، فأنسن الثّور، ثمَّ شبّهه بشخصٍ تبلل بالماء البارد حين نزل يستخرجه من بئرٍ، وربّما كشفت صفات الثّور (متجرّد، عريان) عن بقائه وحيداً بعيداً عن القطيع، قلقاً من أيّ خطرٍ قد يهدّد وجوده، فيفصح عن نيّته في المواجهة وخوض القتال إن لزم الأمر؛ إذ حمل له طير القتال خبر اقتراب الخصوم، لذا استعدَّ الثّور لخوض معركته بانتباهٍ خوف الغدر، مبرزاً قرنيه سلاحاً يحمي به نفسه، فلاقى كلاب الصّيد، يوجّهها صيادٌ ضامر البطنِ، يشبه الذّئب في مكره، وحرصه على قنص طريدته فلا ينجو منه أحد.

لقد استطاع الثّور أن يتغلّب على خصومه، معتمداً على قوّة قرنيه، وانتصاره في معركته تلك يسمو على أيّ انتصارٍ آخر، وكأنّه قائد الجماعة يخطط بحذرٍ، ويحمي صفوفهم الخلفيّة، ويفتك بخصومهم،

فغدا مثل مقاتلٍ شجاعٍ انتصر في معركته بجدارةٍ بعد أن حمى أصحابه من غدر العدو، وانتصار الثّور منفرداً على مجموعة كلابٍ مدرّبةٍ يبرز قوّته وتفوّقه عليهم، فنجده مندفعاً يطعن الكلاب بقرنيه مختاراً موضع المواجهة في الطّعن، فلا يغدر خصمه، وحين يطعن تكون ضربته مصيبةً قاتلةً.

إنَّ الانتصار يمنح الثّور نمطاً من الارتياح (انْجَلت عماية نفره)، فالهمّ الّذي سيطر عليه، وأقلقه زال وتبدّدت معه مخاوف الثّور، فحفظ بقاءه، وأثبت قوّته ليتابع حياته بثقة المتفوّق على الأقوياء، وقد صوّر بعثرة الكلاب القتلى هنا وهناك، بعد أن فرّق الثّور جمعها، فعبّر عن ألق الانتصار، والتّغلّب على الصّعاب، فبعد أن كانت الكلاب متراصّة، مجتمعة، بدّد الثّور جمعها، وفرّقها، إنّها بداية الانتصار على أيّ صعبٍ، وصورةٌ من صور اكتشاف الذّات، وإثبات قوّتها، ويأتي الفعل (اجتازَ) ليدلَّ على حال الارتياح، فالفعل (انجلت)، أبرز تخلّصه من كلّ ما كدّر صفوه، ثمَّ جاء الفعل (اجتاز) ليعمّق التّخلّص من الآثار النّفسيّة لكلّ ما مرّ به والانتقال إلى حالة الاستقرار والارتياح، فاجتياز الصّحراء خلاصٌ من الصّعاب، وانطلاقٌ إلى بدايةٍ جديدةٍ وحياةٍ يملؤها التّفاؤل والخير؛ إذ شّبه لون الثّور بالثّوب الأبيض النّاصع الذّي حُفِظَ ليظلّ أبيض، فلم يُلبَس، ومنحته أشعّة الشّمس بريقاً يزيده نقاءً وبياضاً، إنَّ حضور اللّون الأبيض والشّمس السّاطعة يدلّان على التّفاؤل، وقد جعل لبيد الثّور مصوناً محميّاً، يعدو مسرعاً فيهتزّ جسده لشدّة سرعته، وقد حافظ على نفسه سليماً، ولم ينجح أعداؤه في خدش جسده، فانتصاره انتصار الأبطالِ دفع الخوف من المجهول، ومضى إلى تحقيق الأهداف.

يمثّل الثّور معادلاً لجزئيّةٍ من ذات لبيد، عبّر من خلاله عن رحلته في الحياة، وأراد الخروج من معركة الحياة قويّاً منتصراً لا يعرف الخوف، ولا الهزيمة.

قال لبيد يصف قصّة الثّور: [1]

1-أَذَلِكَ أَمْ نَزْرُ المَرَاتِعِ فَادِرٌ أَحَسَّ قَنِيْصاً بِالبَرَاعِيْمِ خَاتِلَا

2-فَبَاتَ إِلَى أَرْطَاةِ حِقْفٍ تَضُمُّهُ شَآمِيَّةٌ تُزْجِي الرَّبَابَ الهَوَاطِلَا

3-وَ بَاتَ يُرِيْدُ الكِنَّ لَوْ يَسْتَطِيْعُهُ يُعَالِجُ رَجَّافاً مِنَ التُّرْبِ غَائِلَا

4-فَأَصْبَحَ وانْشَقَّ الضَّبَابُ وهَاجَهُ أَخُو قَفْرَةٍ يُشْلِي رَكَاحاً وسَائِلَا

5-عَوَابِسَ كَالنُّشَّابِ تَدْمَى نُحُوْرُهَا يَرَيْنَ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ نَوافِلَا

6-فَجَالَ ولَمْ يَعْكِمْ لِغُضْفٍ كَأَنَّهَا دِقَاقُ الشَّعِيْلِ يَبْتَدِرْنَ الجَعَائِلَا

7-لِصَائِدِهَا فِي الصَّيْدِ حَقٌّ وَطُعْمَةٌ وَ يَخْشَى العَذَابَ أَنْ يُعَرِّدَ نَاكِلَا

8-قِتَالَ كَمِيٍّ غَابَ أَنْصَارُ ظَهْرِهِ وَ لَاقَى الوُجُوهَ المُنْكَرَاتِ البَوَاسِلَا

9-يَسُرْنَ إِلَى عَوْرَاتِهِ فَكَأَنَّمَا لِلَبَّاتِهَا يُنْحِي سِنَاناً وعَامِلَا

10-فَغَادَرَهَا صَرْعَى لَدَى كُلِّ مَزْحَفٍ تَرَى القَدَّ فِي أَعْنَاقِهِنَّ قَوَافِلَا

([1])-ديوانه، ص137-139.الفادر: الشّاب، البراعيم: اسم موضع، خاتل: مستتر، الرّباب: السّحاب، الرّجاف: المضطرب، غائل: كثير، ركاح وسائل: اسما كلبين، يعكم: يرجع، الغضف: كلاب الصّيد، اللّبات: أعالي الصّدور، القدّ: الجرح.

تبدأ قصة الثّور الوحشيّ باستشعاره خطراً يحدق به؛ إذ رأى الصّيّاد يخادعه ويتخفّى عنه ليقنصه، فلجأ الثّور إلى شجرةٍ ليحمي نفسه من عوامل الطّبيعة القاسية بعد أن بدأت الأمطار تهطل بغزارةٍ، وليغيب عن نظر الصّياد في آن.

و يصوّر لبيد الثّور فاقداً الأمان (بات إلى أرطاة حقفٍ تضمّه، بات يريد الكنَّ لو يستطيعه)، فتكرار الفعل (بات) مرّتان قد يدلُّ على معنى استقرَّ، وكأنّه ينشد الاستقرار قرب تلك الشّجرة، فيتمنّى لو تضمّه، وتحقق له الكنَّ، ويجمع التّراب ليصنع لنفسه مرقداً، لعلّه يقضي ذاك اللّيل البارد بسلامٍ، فيأتيه الصّباح بأملٍ جديدٍ، وبدايةٍ قد تحقّق مراده، لكنّ أمله يخيب فصباحه المنتظر وانشقاق الضّباب لم يكشف عمّا يرتقبه من انفراجاتٍ، فيأتي الفعل (هاجه) ليدلَّ على اضطراب حالة الثّور؛ إذ باغته الصّيّاد وكلابه الجائعة، وراح يغريها بالثّور لتفترسه، ويبدو أنَّ كلاب الصّيّاد أشدّ فتكاً منه، فيصوّرها (عوابس كالنّشّاب تدمى نحورها)، لقد شبّهها برماة النُّبلِ، واختار رماةً تصيب هدفها بدقّةٍ، فتغدو خصومها غنائم.

إنَّ خصوم الثّور أقوياء، ويتفوّقون عليه عدداً، فالكلاب مثل فتائل دقيقة، والفتائل خطرٌ قد يودي بمن حوله حين يشتعل، وكأنّها حين تهاجم خصماً لا تستسلم حتّى تودي به صريعاً، وهي تتسابق لافتراس طريدتها، ممّا يزيد خطرها على الثّور، فهي تتنافس لتنال منه، فلا يستطيع الهرب منها، لذا يتّخذ قرار مواجهتها، مدركاً أنَّ أيّ لحظة خوفٍ أو جبنٍ منه ستجعله يخسر المعركة، ويخسر البقاء.

لقد جعل لبيد الثّور مثل فارسٍ مقاتلٍ، وحيدٍ في معركته، لا يسانده صاحبٌ يحميه من غدر خصومه، فيواجه خصوماً وجوههم عابسةٌ تخيف النّاظر، فهم يتّصفون بالغدر، وأجسادهم تشبه الأسلحة القاتلة، لكنَّ المعركة تنتهي بانتصار الثّور انتصاراً عظيماً؛ إذ تغلّب على الكلاب، وتركها مرميّةً بعد أن ذبح أعناقها، وأصاب مقتلها.

و قدر عبّر لبيد عن صمود الثّور أمام الصّعاب، ووجوده طرفاً في معركةٍ غير متكافئةٍ، ومواجهة خصومه حتّى النّصر، لكي يعكس رحلة حياته، فربّما كانت معاناة الثّور معادلاً موضوعياً لجزئيّةٍ من ذات لبيد، فصوّر صموده في مواجهة قسوة الطّبيعة، وثباته أمام فعل الدّهر وما حمله له من مصائب، واستطاع التّغلّب على نوائب الدّهر الغادرة وحيداً، فلم يجد في رحلة حياته عوناً يقيه من الغدر، لذا اعتمد على ذاته وقوّته ليضمن بقاءه.

يشبّه لبيد ناقته بثورٍ وحشيٍّ، ثمَّ يروي معركة ذلك الثّور قائلاً:[1]

1-عُذَافِرَةٌ تَقَمَّصُ بِالرُّدَافَى تَخَوَّنَهَا نُزُولِي وارتِحَالِي

2-كَعَقْرِ الهَاجِرِيِّ إِذَا ابتَنَاهُ بِأَشْبَاهٍ حُذِيْنَ عَلَى مِثَالِ

3- كَأَخْنَسَ نَاشِطٍ جَادَتْ عَلَيْهِ بِبُرْقَةِ وَاحِفٍ إِحدَى اللَّيَالِي

4-أَضَلَّ صِوَارَهُ وتَضَيَّفَتْهُ نَطُوفٌ أَمْرُهَا بِيَدِ الشَّمَالِ

([1])-ديوانه، ص154. عذافرة: ضخمة قويّة شديدة، تقمّص: تنزو به، العقر: القصر، الأخنس: الثّور، واحف: مكان، برقة: موضع يخلط ترابه أو رمله حصىً، صواره: قطيع بقر وحشيّ، نطوف: سحابة تمطر، غرقد: شجر، جنوح الهالكي: إكباب الصّاقل، مُلحَم: كلب يُطعَم اللّحم، الفرائص: فروع كتفيه، طحال: اسم كلب، شزراً: جانباً، السّراد: السّير، النّقال: الرّقاع، تحسر: تنكشف، فلج: بلد، الدّهناء: برية، الفيال: لعبة تعتمد على تخبئة شيء تحت التّراب ويُسأل آخر في أي الجانبين هو، يقتري: يتتبّع.

5-فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نُدُوْرٍ يَلُوذُ بِغَرْقَدٍ خَضِلٍ وَضَالِ
6-إِذَا وَكَفَ الغُصُوْنُ عَلَى قَرَاهُ أَدَارَ الرَّوْقَ حَالاً بَعْدَ حَالِ
7-جُنوحَ الهَالِكِيِّ عَلَى يَدَيْهِ مُكِبّاً يَجْتَلِي نُقَبَ النِّصَالِ
8-فَبَاكَرَهُ مَعَ الإِشْرَاقِ غُضْفٌ ضَوَارِيْهَا تَخُبُّ مَعَ الرِّجَالِ
9-فَجَالَ ولَمْ يَجُلْ جُبْناً ولَكِنْ تَعَرَّضَ ذِي الحَفِيْظَةِ لِلْقِتَالِ
10-فَغَادَرَ مُلْحَماً وعَدَلْنَ عنْهُ وَ قَدْ خَضَبَ الفَرَائِصَ مِنْ طِحَالِ
11-يَشُكُّ صِفَاحَهَا بِالرَّوْقِ شَزْراً كَمَا خَرَجَ السِّرَادُ مِنَ النَّقَالِ
12-وَ وَلَّى تَحْسُرُ الغَمَرَاتُ عَنْهُ كَمَا مَرَّ المُرَاهِنُ ذُو الجِلَالِ
13- ووَلَّى عَامِداً لِطِيَّاتِ فَلْجٍ يُرَاوِحُ بَيْنَ صَوْنٍ وابتِذَالِ
14-تَشُقُّ خَمَائِلَ الدَّهْنَا يَدَاهُ كَمَا لَعِبَ المُقَامِرُ بِالفِيَالِ
15-وَ أَصْبَحَ يَقْتَرِي الحَوْمَانَ فَرْداً كَنَصْلِ السَّيْفِ حُوْدِثَ بِالصِّقَالِ

يصف لبيد ناقته الضّخمة القوية النّشيطة، الّتي يتجاوز عليها أهوال الصّحراء، فهي نحيلةٌ لكثرة أسفاره، لكنّها صلبةٌ مقاومةٌ لكلّ ما يعتريها من مصائبَ؛ إذ يشبّهها بالقصر الضّخم المدعّم ببنيانٍ صلبٍ مقاومٍ لعوامل الطّبيعة، وربّما أراد أن يضفي على ذاته شيئاً من صفات الملوك من مثل القوّة، والإباء، والمرتبة الرّفيعة، والمنعة.

وناقته تجمع صفاتِ القوة، والقدرة أيضاً، ويضفي عليها لبيد مزايا أخرى حين يشبّهها بالثّور، ويجعله ناشطاً، ووصفه على وزن (فاعل) يدلُّ على ملازمته هذا العمل، وكأنّه مهنته الّتي اعتادها، فغدا متنقلاً من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن الرّزق، والاستقرار الآمن، فيأتي الفعل (جادت) معبّراً عن عطاء الطّبيعة خيراً وفيراً، لكنَّ الثّور بقيَ وحيداً بعدما أضاع البقرة، فلجأ إلى الطّبيعة في ليلةٍ ماطرةٍ، رياحها باردةٌ، لجأ إلى الطّبيعة لجوء الضّيف، يلوذ بها من أيّ خطرٍ، ويصوّر لبيد نشاط الثّور في الحفر، يصنع لنفسه مأوىً بكلّ جدٍّ، وكأنّه نذر إنجاز هذا العمل، ولا تراجع عنه حتّى إتمامه، حمايةً لوجوده، فالفعل (يلوذ) يدلُّ على حاجته العميقة للملجأ الآمن، ويختاره بين الأشجار الخضراء النّديّة النّضرة، قرب المياه الجارية، إنّه ينشد مكاناً مفعماً بالحياة، فيصوّره لبيد في لوحةٍ شعريّةٍ تفيض تمسّكاً بالحياة؛ إذ تتساقط عليه قطرات الماء، فيستدير ليلتقطها بقرنه وكأنّه يعلن تشبّثه بالحياة، ويشبّه صورته تلك بصورة صاقلٍ شُغِفَ بعمله، فانبرى مجدّاً ينجز صقل السّيوف، يجلو الصّدأ ليعيدها جديدةً حادّةً كما كانت، فالعمل بإتقانٍ يعبّر عن أرقى حالات التّمسّك بالحياة كريمةً، والثّور سعى إلى إيجاد بيئةٍ خصبةٍ غنيّةٍ بالمياه، والتقط قطرات المطر رغبةً في استمرار الحياة.

لكنَّ حياة الثّور لا تمرُّ هادئةً هانئةً كما يتمنّى، فإشراقة الصّباح لم تحمل له بدايةً تسعده؛ إذ هاجمته كلاب صيدٍ متمرّسةٍ في تتبّع طرائدها، آذانها كبيرةٌ مسترخيةٌ ممّا يزيد من قدرتها على التقاط مكان الطّريدة، وهي سريعة العدوِ لا تفرُّ الطّريدة منها بسهولةٍ.

لقد واجه الثّور خطراً يهدد وجوده، وفي تلك اللّحظات المصيريّة وجبَ عليه اتّخاذ قرارٍ صائبٍ لينال نجاته، لذا يتّخذ قرار الهروب، لكنَّ فراره لا يدلُّ على ضعفه، أو عدم قدرته على المواجهة، إنّما جاء بعد تفكيرٍ عميقٍ، وإدراكٍ لفروق العدد بين طرفي هذه المعركة، فلا بدَّ أن يخسر معركته، ويخسر وجوده إذا ترك لهم

فرصة محاصرته من كلّ حَدَبٍ، فيفرُّ هارباً حتّى يجد نفسه قادراً على خوض معركةٍ، أو يجد فرصةً لمواجهة خصومه فُرادى؛ وقد استطاع هزيمة أكثرهم شراسةً محقّقاً النّجاة، ويُلقَّبُ ذاك الكلب (مُلحَماً)، ممّا يدلُّ على شراسته، وفتكه المتكرّر بالطّرائد، وتفوّق الثّور على خصمٍ قويٍّ يضفي على انتصاره بطولةً، فيرهب باقي الخصوم، وتتراجع معظم الكلاب عن مطاردته خوفاً منه (عدلن عنه)، أمّا أحد الكلاب (طحال)، فيفتك الثّور به، حتّى يُخضَّبَ بدمائه، ويصوّر لبيد بطولة الثّور، وقدرته على هزيمة خصومه مستعيناً بقرنيه، يطعن بهما جسد خصمه كيفما استطاع قاصداً قتله، فقرنه مثل قطعة حديدٍ تخرق أيَّ رقعةٍ فتمزّقها، وبامتلاكه هذا السّلاح الفتّاك، وحسن تخطيطه نال التّفوّق على خصومٍ أقوياء، وحقّق البقاء بجدارةٍ وبطولةٍ.

يعلن لبيد انتصار الثّور، فيكرّر الفعل (ولّى) مرّتين، وكأنَّ خروجه من تلك المعركة منتصراً سالماً أمرٌ مفاجئٌ، يخالف التّوقّعات، فيصوّر انتصاره شبيه الفرار، إنّه فرارٌ من الموت، لقد تنفّس الصّعداء، ونفض عن ذاته تعب المعركة، فبدا مثل فرسٍ عَوّلَ عليه قومه لتحقيق النّصر، أمّا وَصف الفرس المنتصر فهو (ذو الجلال)، والجلال سمةٌ يحمل صاحبها معاني القوّة، والبطولة، والرّفعة، ويشعر الآخرون تجاهه بالرّهبة، والاحترام، والخوف؛ فالفرس أو الثّور حين حقّقا النّصر قهرا الموت بالفعل البطوليّ.

يتابع الثّور رحلته، باحثاً في الطّبيعة عن الملجأ الآمن، والخير الوفير، فيسرع تارةً، ويمشي بهدوءٍ تارةً أخرى، يختار الغابات الكثيفة، ويحفر التّراب ليصنع لنفسه مأوىً، فيشبّه عمله باختيار المقامر بين الحفر، ليربح محتواها، فيغامر معتمداً على الفأل، وقد يفشل في الاختيار، لكنَّ الثّور يسعى ويعمل بدأبٍ، فإن فشل في اختيار المكان انتقل إلى غيره، لقد منحته تجارب الحياةِ قوّةً وصلابةً وصموداً، فأصبح مثل سيفٍ صُقِلَ مرّاتٍ ومرّات، فازداد حدّةً ولمعاناً وقدرةً على الفتك بخصومه.

تعبّر رحلة الثّور ومعركته عن رحلة إنسانٍ يخطّط بذكاءٍ لنيل الأهداف، فالتّسرّع قد يودي بالمرء إلى التّهلكة،" إنَّ حديث الشّاعر عن ضروب الكفاح الشّاقّ المتّصل، وعنايته بتصويرها هو حديث عن نواميس الحياة، وحقائقها الأبديّة، وتصويرٌ لها، فليست المعركة القاسية الطّويلة الّتي يخوضها الثّور الوحشيّ سوى صورةٍ حيّةٍ أصيلةٍ من صور الصّراع الخالد بين الأحياء والطّبيعة، أو بين الأحياء والأحياء دفعاً للظلم، ودفاعاً عن الحياة في نقائها، ووفرتها، وجمالها"[1].

2-السّعي في مشهد صيد البقرة الوحشيّة :

تمثّل قصّة البقرة الوحشيّة صراعاً مع الصّياد وكلابه، لكنّها تختلف عن قصّة الثّور في جانبٍ الأمومة؛ إذ يروي الشّاعر قصّتها المؤلمة، وفقدها صغيرها بعد أن غفلت عنه، فواجهت حرقة الفقد، والنّدم على الغفلة ساعة لا ينفع النّدم، فالشّاعر يصوّر في هذه القصّة سطوة " الموت وقد تهيَّأ، ويرسم القدر وقد حان وهو على شكل صيّاد ماهر، أو حيوان جارح يترصّد لهذا الحيوان، ويترقّب حركاته، ويلاحقه حتّى إذا أصبحت الفرصة مواتية سدّد سهمه، وصوّب ربحه، وانقضَّ عليه ، فأرداه على الأرض يسحّ دماؤه"[2].

([1])- الرّحلة في القصيدة الجاهليّة، د. وهب روميّة، مؤسّسة الرّسالة، دمشق، ط2، 1979م، ص117.

([2])-الطّبيعة في الشّعر الجاهليّ، د. نوري حمودي القيسيّ، دار الأرشاد، بيروت، ط1، 1970م، ص324. قد يكون الصّواب في المقبوس: صوّب رمحه، وتسحُّ دماؤه.

قال زهير بن أبي سلمى:[1]

1-تُبَادِرُ أَغْوَالَ العَشِي وتَتّقِي عُلَالَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحْصَدِ
2-كَخَنْسَاءَ سَفْعَاءِ المَلَاطِمِ حُرَّةٍ مُسَافِرَةٍ مَزْؤُودَةٍ أُمِّ فَرْقَدِ
3-غَدَتْ بِسِلَاحٍ مِثْلُهُ يُتَّقَى بِهِ وَ يُؤمِنُ جَأْشَ الخَائِفِ المُتَوَحِّدِ
4-وَ سَامِعَتَينِ تَعْرِفُ العِتْقَ فِيْهِمَا إِلَى جَذْرِ مَدْلُوكِ الكُعُوبِ مُحَدَّدِ
5-وَ نَاظِرَتَينِ تَطْحَرَانِ قَذَاهُمَا كَأَنَّهُمَا مَكْحُوْلَتَانِ بِإِثْمِدِ
6-طَبَاهَا ضَحَاءٌ أَو خَلَاءٌ فَخَالَفَتْ إِلَيْهِ السّبَاعُ فِي كنَاسٍ ومَرْقَدِ
7-أَضَاعَتْ فَلَمْ تُغْفَرْ لَهَا خَلَوَاتُها فَلَاقَتْ بَيَاناً عِنْدَ آخِرِ مَعْهَدِ
8-دَمَاً عِنْدَ شِلْوٍ تَحْجُلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وَ بَضْعَ لِحَامٍ في إِهَابٍ مُقَدَّدِ
9-وَتَنْفُضُ عَنْهَا غَيْبَ كُلِّ خَمِيْلَةٍ وَتَخْشَى رُمَاةَ الغَوْثِ مِنْ كُلِّ مَرْصَدِ
10-فَجَالَتْ عَلَى وَحْشِيّهَا وكَأَنَّهَا مُسَرْبَلَةٌ فِي رَازِقِيٍّ مُعَضَّدِ
11-وَلَمْ تَدْرِ وَشْكَ البَيْنِ حَتَّى رَأَتْهُمُ وَ قَدْ قَعَدُوا أَنْفَاقَهَا كُلَّ مَقْعَدِ
12-وَ ثَارُوا بِهَا مِن جَانِبَيْهَا كِلَيْهِمَا وَ جَالَتْ وإِنْ يُجْشِمْنَهَا الشَّدَّ تَجْهَدِ
13-تَبُذُّ الأُلَى يَأْتِيْنَهَا مِنْ وَرَائِهَا وَ إِنْ تَتَقَدَّمْهَا السَّوَابِقُ تَصْطَدِ
14-فَأَنْقَذَهَا مِنْ غَمْرَةِ المَوْتِ أَنَّهَا رَأَتْ أَنَّهَا إِنْ تَنْظُرِ النَّبْلَ تُقْصَدِ
15-نَجَاءٌ مُجِدٌّ لَيْسَ فِيْهِ وَتِيْرَةٌ وَ تَذْبِيبُها عَنْهَا بِأَسحَمَ مِذْوِدِ
16-وجَدَّتْ فَأَلْقَتْ بَيْنَهُنَّ وبَيْنَهَا غُبَاراً كَمَا فَارَتْ دَواخِنُ غَرقَدِ
17-بِمُلتَئِماتٍ كَالخَذَارِيفِ قُوبِلَتْ إِلى جَوْشَنٍ خاظِي الطَّرِيقَةِ مُسْنَدِ

تبدو ناقة زهير مندفعةً نشطةً، لا تخشى أيَّ خطرٍ، فقد تصل براكبها أماكن يخاف ورودها، وهي تطاوع صاحبها فتسلم من قسوة سوطه، ويشبّه ناقته ببقرةٍ نشيطةٍ سريعة العدو، وكأنّها تفرُّ من خطرٍ يتبعها، وهي أمٌّ تخشى على ابنها من أيّ خطرٍ، فتحميه وتحمي نفسها بقرنيها القاطعين، وتوظّف عينيها وأذنيها لرصد أيّ خطرٍ، وكأنّها تحارب خصمها بكلّ حواسها، وتتمسّك بالحياة وتصون ابنها بصلابةٍ، لكنَّ ذلك كلّه لم يحفظهما من سطوة الدّهر؛ إذ شُغلت عن ابنها بالرّعي وقت الضّحى، ولم يحمل لها ذاك الصّباح فرجاً وتجدّداً بعد أن انقضَّ السّباع على ابنها النّائم، لتفقده في لحظات غفلتها عنه، وتصبح ثكلى تبحث عن بقاياه حيث

(1)-شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشّنتمريّ، تحقيق د. فخر الدّين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1970م، ص181-186. أغوال: ما يهلك الإنسان، علالة ملوي: سوط مفتول، القد: الجلد، محصد: شديد الفتل، سفعاء: سوداء فيها حمرة، مزؤودة: مذعورة، الفرقد: ولد البقرة، مدلوك: أملس، المحدّد: الحديد الرأس، تطرحان: ترميان، طباها ضحاء: دعاها الرّعي، الخلاء: مكان، الكناس: مكان تتقي به من حر أو برد، الشّلو: بقيّة الجلد، الإهاب: الجلد، المقدّد: المخرّق، تنفض: تنظر، جالت: ذهبت وعادت، الوحشي: الجانب الّذي لا يركب منه، الرّازقيّ: ثوب أبيض، المعضّد: المخطط ، وشك البين: سرعته، يجشّمها الشّدّ: يكلّفها الجري، تبذُّ: تسبق، النّجاء: السّرعة في السّير، الوتيرة: التلبّث والفترة، أسحم: قرن أسود، مذود: مدافع عن نفسه، غرقد: شجر، ملتئمات: قوائم يشبه بعضها بعض، خذاريف: يلعب بها الصّبيان، جوشن: الصّدر، خاظي: كثير اللّحم المتراكب.

تركته راقداً، فترتاع لرؤية بقايا أشلائه ودمائه، يجتمع الطّير على ما بقي من ولدها بعد أن أكله السّباع، وتمزّق جسده.

لقد وجدت نفسها وحيدةً فقدت ابنها، قلقةً من خطرٍ قد يودي بها، فربّما ترصّدها الصّيادون، لذا اضطربت حركتها، وزاد توتّرها، ووقع ما كانت تخشاه، حاصرها الرّماة من كلّ صوبٍ، ولمّا انقضّوا عليها زاد اضطراب حركتها ودورانها، وأرهقها الجري والدّوران بسرعةٍ، لكنّها لم تستسلم، عدت مسرعةً لتهرب من كلابٍ تتبعها، فواجهت كلاباً، تغلّبت عليهم بطعناتِ قرنيها، إنّها معركةٌ غيرُ متكافئةٍ، فالبقرة وحيدةٌ في مواجهة كلابٍ، وحالتها يُرثى لها، لكنّها تنشد النّجاة، فبعد معركتها مع الكلاب تابعت الهرب خوفاً من سهام الصّيادين، فاستطاعت الفرار منهم بسرعة عدوها، وحسن تخطيطها، ودفاعها عن نفسها بقرنيها، ولسرعتها في الهرب تثير الغبار خلفها، فأطرافها تساعدها في العدو، وتخضيب جلدها باللون الأحمر لكثرة عدد الكلاب الّذين صرعتهم، ما يدلُّ على انتصارها، ونجاتها من الموت.

إنَّ قصّة البقرة تجسّد حالةً خاصّةً، وهي حالة الأمومة والحرص على الأبناء، لكنَّ يد الدّهر لا ترحم تلك الأمّ، فيطال الموت ابنها، وتأكله السّباع في وقت انشغالها عنه بالرّعي، ولا تنتهي مأساتها بالثّكل؛ إذ تأتيها سطوة الدّهر، وتُحاط بالموت، الرّماة وكلاب الصّيد، لكنّها تتمسّك بالحياة، فتعتمد على قوّتها وتتسلّح بقرنيها، وسرعتها لتنجوَ من الموت.

ويصوّر زهير حالة الثّكل، وتوتّر البقرة بعد موت ابنها، فبدت مضطربةً، تتحرّك جيئةً وذهاباً، وتتبّع آثار ولدها ومكانه، لتُصدم برؤية بقاياه الممزّقة وأشلائه، لكن على الرّغم من مأساتها نجدها تستجمع قواها، فتواجه، وتعدو مسرعةً، لتصرَّ على الحياة، وكأنّ زهيراً يريد أن يقول: إنَّ الغفلة تودي بالمرء إلى المصائب، لكنَّ الحياة لا تتوقّف، وعلى الإنسان أن يتماسك أمام الأهوال، ويسمو على جراحه، ويناضل باستمرارٍ، وبكلّ قواه، حمايةً لنفسه من أيّ خطرٍ يهدد وجوده.

يجمع زهير قصّة الحمار والبقرة في قصيدةٍ واحدةٍ ، قائلاً:[1]

1-دَعْهَا وسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ تَنْجُو نَجَاءَ الأَخْدَرِيَ المُفْرَدِ
2-كَمُصَلْصِلٍ يَغْدُو عَلَى بَيْدَانَةٍ حَقْبَاءَ مِنْ حُمُرِ القَنَانِ مُشَرَّدِ
3-صَأْفَا يَطُوفُ بِهَا عَلَى قُلَلِ الصُّوَى وَ شَتَا كَذَلْقِ الزُّجِّ غَيْرَ مُقَهَّدِ
4-خَافَا عَمِيْرَةَ أَنْ يُصَادِفَ وِرْدَهَا وَ ابنُ البُلَيْدَةِ قَاعِدٌ بِالمَرْصَدِ
5-فَأَجَازَهَا تَنْفِي سَنَابِكُهُ الحَصَى مُتَحَلِّبَ الوَشَلَينِ قَارِبَ ضَرغَدِ
6-بَاتَا وبَاتَتْ لَيْلَةٌ سَمّارَةٌ حَتَّى إِذَا تَلَعَ النَّهَارُ مِنَ الغَدِ
7-وَ رَأَى العُيُونَ وقَدْ وَنَى تَقْرِيبُهَا ظَمَأً فَخَشَّ بِهَا خِلَالَ الغَرْقَدِ
8-تَنْجُو كَذَلِكَ أَوْ نَجَاءَ فَرِيْدَةٍ ظَلَّتْ تَتَبَّعُ مَرْتَعاً بِالفَرْقَدِ

([1])-شعر زهير بن أبي سلمى، ص230، 232. تنجو: تسرع، الأخدري: حمار وحشيّ، المصلصل: العير المصوّت، البيدانة: الأتان الوحشيّة، الحقباء: في موضع الحقيبة منها بياض، القنان: جبل لبني أسد، صاف: أقام في الصّيف، القل: أعالي القمم، الصّوى: الأرض المرتفعة الغليظة، الذّلق: الحد، المقهد: البادن السمين، عميرة: اسم صائد، الفريدة البقرة المنفردة، الفرقد: ولد البقرة، تراعيه: ترعى معه، الطّل: النّدى، الإهاب: الجلد، انجاب: انكشف، تلددت: ترددت وتلفتت تطلب ولدها، النّكباء: المتنكبة الماثلة على الطّريق، القار: الزّفت، الكحيل: القطران، المعقد: غُلي على النّار حتّى غلظ، تيممت: قصدت، عرض الفلاة: ناحيتها، الأقهد: الأبيض.

9-بَيْنَا تُرَاعِيهِ بِكُلِّ خَمِيلَةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الطَّلُّ ظَاهِرُهَا نَدِي
10-غَفَلَتْ فَخَالَفَهَا السّبَاعُ فَلَمْ تَجِدْ إِلَّا الإِهَابَ تَرَكْنَهُ بِالمَرْقَدِ
11-حَتَّى إِذَا مَا انجَابَ عنْهَا لَيْلُهَا وَ تَلَدَّدَتْ بِالرَّمْلِ أَيَّ تَلَدَّدِ
12-وَ رَأَيْتَهَا نَكْبَاءَ تَحْسَبُ أَنَّهَا طُلِيَتْ بِقَارٍ أَوْ كُحَيلٍ مُعقَدِ
13-وَ تَيَمَّمَتْ عُرضَ الفَلَاةِ كَأَنَّهَا غَرَّاءُ مِنْ قِطَعِ السَّحَابِ الأَقْهَدِ

يتّخذ زهيرٌ من النّاقةِ والرّحلة عليها سبيل التّخلّص من الهموم، ثمَّ يشبّه تلك النّاقة بحمار وحشٍ يتّصف بسرعة الجري وقدرته على النّجاة من أيّ خطرٍ، وكأنّه يريد إضفاء تلك الصّفات على ناقته، ويشبّهها بالمصلصل، وهو الحمار الّذي يصدر صوتاً حين يشعر بخطرٍ يلاحقه، فيسرع هرباً من الصّيادين، وربّما أفاد تكرار حرفي الصاد واللام (مصلصل) إشاعة الإحساس بحالة الذّعر الّتي أصابت الحمار، فزاد من سرعته لينجو ومَن معه من الأتان.

لقد قصد الحمار وأتانه قمم الجبال في الصّيف، فهو يجتاز الصّعاب، ولا يحدّ من سعيه حرّ الصّيف، أو وعورة الطّريق، ويواجه قسوة الشّتاء بقوّةٍ، يساعده جسده النّحيل على تحمّل قسوة الطّبيعة، لكنّه يخشى فعل الصّيّاد، ويخاف على أتانه، ويحدث ما يخشاه، فالصّيّاد يتربّص بهما، ويختار مكاناً مرتفعاً ليراقبهما وينال منهما، لكنّ الحمار يجذب أتانه ليسلكا طريقاً توصلهما إلى موضعٍ خصبٍ فيه ماء، إنّهما ينشدان النّجاة، والبقاء، فيسهران ليلاً طويلاً يترقّبان إشراقة الصّباح، ليكون صباح الأمل والخلاص من قبضة الموت، لكنَّ مرادهما لا يتحقّق، فالماء الّذي تأمّلا وجوده جفَّ تقريباً، وما تبقّى من آثاره لا يروي أحداً، ويصوّر زهيرٌ آثار ذاك الماء وقد ضعف جريانه كثيراً، وعلى الرّغم من تعدد تلك العيون لم يجدا ماءً يرويهما، وكأنَّ أملهما قد انقطع، فرحلا بين الأشجار الكثيفة، ليتخلّصا من خطر الصّيّاد، فيشبّه نجاة الأتان ببقرةٍ وحشيةٍ كانت ترعى مع ولدها، فيلتفت إلى قصتها متجاهلاً حمار الوحش وأنثاه.

إنَّ البقرة الوحشية وابنها يبحثان عن العشب، ويصوّر زهيرٌ عنايتها بابنها (تراعيه بكلّ خميلةٍ)، وكأنها تجلب له ما يحتاجه من كلّ أرضٍ خصبةٍ نديّةٍ، وتحيطه برعايتها، لكنّها لم تكن تدرك أنَّ الخطر محدقٌ به، وسيسلبها ابنها حين تغفل عنه؛ ففي تلك اللّحظات الّتي ابتعدت فيها عن ابنها، تمكّن منه السّباع، ولم تجد إلّا بقاياه، قطعاً ممزّقةً من جلده حيث كان يرقد، وراحت تبحث عنه، وكأنّها ترفض فكرة موته وتتأمّل أن تجده، لكنَّها تتخبّط تائهةً، موشّحةً بالسّواد، فيصفها (نكباء، طليت بقارٍ)، لقد غدت ثكلى تسيطر عليها حسرة الفقد، ويحضر اللّون الأسود الشّديد الفاحم، ليرسّخ حزنها، فيجعل لونها مثل لون القار، أو مثل سواد القطران الّذي عُتّقَ بالغلي فازداد سواداً، وكأنَّ اللّون الأسود العادي لا يكفي للتعبير عن حداد الفقد، ففقد الابن أشدّ إيلاماً لذا يحتاج السّواد الحالك ليبرز حالة الحزن والثّكل.

أمّا مصير تلك البقرة بعد ما عانته، فهو السّير في الفلاة، وكأنّها لا تقصد مكاناً بعينه، فيشبّه سيرها وبياض لونها بسحابةٍ بيضاء تتحرك في السّماء الواسعة بسرعةٍ وخفّةٍ.

نلحظ أن حمار الوحش وأنثاه، والبقرة يشتركان في معاناتهما من خطرٍ دائمٍ، وكأنّ زهيراً أراد أن يبرز سطوة القدر على المرء مهما كان مسالماً ينشد أمانه واستقراره، وعلى الرّغم من المعاناة الّتي تسيطر على

قصتيهما، إلّا أنَّ طريق النّجاة كان مصيراً مشتركاً لهما، وهي الخلاصة أو المسعى الّذي أراد زهير ترسيخه؛ إن لم تستطع تحقيق الأهداف فاكسب طريق النّجاة، إنّه بدايةٌ جديدةٌ لمستقبلٍ يمكن فيه تحقيق المراد.

لقد أضفى الشّاعر على ناقته سمات السّرعة، باستحضار قصة حمار الوحش، وربّما كانت النّاقة معادلاً لجزئيّةٍ من ذات الشّاعر، لكنَّ السّرعة الّتي صوّرها " ليست سرعة النّاقة ولا سرعة الشّاعر، ولكنّها تصوير وتجسيد لإحساس الشّاعر بسرعة الأيّام، وتواليها، واختلاف صروفها"[1].

قال لبيد يصف قصّة البقرة : [2]

1-وَ أَقْطَعُ الخَرْقَ قَدْ بَادَتْ مَعَالِمُهُ فَمَا يُحَسُّ بِهِ عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ

2-بِجَسْرَةٍ تَنْجُلُ الظُّرَّانَ ناجِيَةً إِذَا تَوَقَّدَ فِي الدَّيْمُوْمَةِ الظُّرَرُ

3-كَأَنَّهَا بَعْدَ مَا أَفْنَيْتُ جُبْلَتَهَا خَنْسَاءُ مَسْبُوْعَةٌ قَدْ فَاتَهَا بَقَرُ

4-تَنْجُو نَجَاءَ ظَلِيْمِ الجَوِّ أَفْزَعَهُ رِيْحُ الشَّمَالِ وشَفَّانٌ لَهَا دِرَرُ

5-بَاتَتْ إِلَى دَفِّ أَرْطَاةٍ تُحَفِّرُهُ فِي نَفْسِهَا مِنْ حَبِيْبٍ فَاقِدٍ ذِكَرُ

6-إِذَا اطمَأَنَّتْ قَلِيلاً بَعْدَمَا حَفَرَتْ لَا تَطْمَئِنُّ إِلَى أَرْطَاتِهَا الحُفَرُ

7-تَبْنِي بُيُوتاً عَلَى قَفْرٍ يُهَدِّمُهَا جَعْدُ الثَّرَى مُصْعَبٌ فِي دَفِّهِ زَوَرُ

8-لَيْلَتَهَا كُلَّهَا حَتَّى إِذَا حَسَرَتْ عَنْهَا النُّجُوْمُ وكَادَ الصُّبْحُ يَنْسَفِرُ

9-غَدَتْ عَلَى عَجَلٍ والنَّفْسُ خَائِفَةٌ وَ آيَةٌ مِنْ غُدُوٍّ الخَائِفِ البُكَرُ

10-لَاقَتْ أَخَا قَنَصٍ يَسْعَى بِأَكْلُبِهِ شَثْنَ البَنَانِ لَدَيْهِ أَكْلبٌ جُسُرُ

11-وَلَّتْ فَأَدْرَكَهَا أُوْلَى سَوَابِقِهَا فَأَقْبَلَتْ مَا بِهَا رَوْعٌ ولَا بَهَرُ

12-فَقَاتَلَتْ فِي ظِلَالِ الرَّوْعِ وَاعْتَكَرَتْ إِنَّ المُحَامِيَ بَعْدَ الرَّوْعِ يَعْتَكِرُ

تبدأ القصيدة بإعلان لبيد قدرته على تجاوز الصّحراء(أقطع الخرق)، ويختار صحراءَ درست كلّ آثارها، وكأنّه يقتحم المجهول، وما عجز عنه الجميع، مبرزاً تفوّقه على الآخرين، ففي تلك الصّحراء لا أثر لبشرٍ استطاع تجاوزها، إنّه يجتازها على ناقةٍ ضخمةٍ قويّةٍ مؤهّلةٍ لتحمّل قسوة الصّحراء، وعناء السّفر، تستطيع مواجهة ظروف المناخ القاسية، فإذا اشتدَّ الحرّ وزادت سخونة الأرض وحجارتها حدّاً لا يُحتمل، نجد ناقة لبيد غير مكترثةٍ تبعثر الحجارة مسرعةً، لتحقق النّجاة، وتنجز مراد صاحبها.

و يشبّه لبيد ناقته ببقرةٍ وحشيّةٍ ثكلى، أكل السّباع صغيرها، فغدت مذعورةً مضطربةً تسرع في عدوها وكأنَّ خطراً يلاحقها، وقلقاً يدفعها إلى مضاعفة سرعتها لتنجو، ثمَّ يشبّه سرعة عدوها بسرعة الظّليم، الّذي يفرُّ من قسوة المناخ بعد أن عانى من برد الرّياح، والأمطار، إنّها صورةٌ تبرز قسوة الطّبيعة، فقد تقتل الظّليم إن استسلم، لكنّه ينشد البقاء، فيسرع لاجئاً إلى مكانٍ يحتمي فيه، وقد تكون سرعته الفائقة عامل نجاته، ثمَّ يعود إلى الكلام على البقرة الثّكلى فهي لا تهدأ، وتلجأ إلى مكانٍ لتجد مستقرّاً يريحها قليلاً، فتركن قرب أرطاة، تصنع

([1])- شعرنا القديم والنّقد الجديد، د. وهب روميّة، عالم الفكر، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996م، ص322.

([2])-ديوانه، ص86-88. الخرق: البعيد من الأرض، الظّرّان: الحجارة، تنجل: ترمي به، الدّيمومة: الأرض الواسعة، الظّرر: الحجارة، تنجو: تمر، شفّان: ريح باردة، جعد الثّرى: رمل فيه ندوة، شثن: غليظ الأصابع، جسر: ماضية على كل شيء، ظلال الرّوع: ما أظلّها من الخوف والفزع، اعتكرت: رجعت.

لنفسها مكاناً قد يريحها، لكنَّ فقدها ابنها لا يترك الرّاحة والاطمئنان يدخلان قلبها، إنّها قلقةٌ مفجوعةٌ، يصوّر لبيد سعيها إلى الاستقرار ونشدانها الأمان من دون جدوى، فمستقرّها حفرةٌ قرب الشّجرة تخشى انهدامها، وحين يصوّرها (تبني بيوتاً على قفرٍ)، يوضّح سعيها المتكرّر إلى الاستقرار، فهي تبذل جهوداً مضاعفةً حين تبني على الدّمار، وكأنّها تحاول إحياء الأماكن المقفرة، لكنَّ القدر وعوامل الطّبيعة يحاربان طموحاتها، فيهدم الرّمل كلّ ما بنته، وتقضي ذاك اللّيل الطّويل مرهقةً من عملٍ لا ينفعها، منتظرةً صباحاً يجلي همومها، ويحمل لها الأمل والتّفاؤل، لكنّ الإصباح يخيّب أملها (غدت على عجلٍ) ومجيء جملة الحال (والنّفس خائفةٌ) تصف حالة القلق والتّوتر والرّعب، كلّ هذا أصابها في ذاك الصّباح، ويبدو أنَّ حالتها تلك كانت مسيطرةً عليها لفجيعتها بابنها، فيجعل لبيد خروجها المبكر من دلالات خوفها، إنّها لا تأمن الدّهر، فتبكر في خروجها لعلّها تسلم من الخطر، لكنَّ القدر يسبق خطاها، (لاقت أخا قنصٍ يسعى بأكلبه)، إنّها تواجه خصوماً في معركةٍ غير متكافئةٍ، الصيّاد مسلّحٌ، والكلابُ قويّةٌ شرسةٌ.

لقد وجدت البقرة نفسها في مواجهة الموت، فقررت الفرار لكنَّ الكلاب استطاعت اللّحاق بها، فلم تنجُ، وأصبحت في معركةٍ لا بُدَّ منها، فلم تستسلم على الرّغم من ضعف موقفها إذا قيس بعدد خصومها وحضور صيّادٍ مُسلّحٍ، لكنّها تتصدّى لهم بلا خوفٍ، ويصوّرها لبيد في تلك المعركة(فقاتلت في ظلال الرّوع)، وكأنَّ خوفها المفرط ومعاناتها القاسية خلقا منها مقاتلة شرسة، تقاتل من أجل البقاء، لقد عبّرت صورة(ظلال الرّوع) عن أعمق دوافع الكائنات للمواجهة، وهو دافع حفظ الذّات من الموت، واختار كلمة (الرّوع) ليبرز المبالغة في الخوف، فالرّوع يدلُّ على أشدّ حالات الرّعب الممزوج بالقلق، ثمَّ تأتي نتيجة صمودها ومواجهتها في الفعل(اعتكرت)، مبرزاً عودتها سالمةً، ويؤكّد لبيد نجاة من يدافع عن حقوقه وبقائه من بعد تعرّضه للظّلم، والقسوة، والرّعب والتّخويف.

لقد صوّر رحلة الإنسان في هذه الحياة، بما تحمله من مشاق، فالدّهر قد يأتيه بما لا يستطيع احتماله، ففقد الأبناء، ثمَّ مصائب يصعب مواجهتها، وأخطار كادت تودي بحياته، لكنَّ صمود المرء، وإصراره على المواجهة، وتمسّكه بالحياة، يحفظ له بقاءه.

كذلك وصف لبيد قصّة البقرة قائلاً:[1]

1-أَ فَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوْعَةٌ خَذَلَتْ وهَادِيَةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَا

2-خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الفَرِيْرَ فَلَمْ يَرِمْ عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وبُغَامُهَا

3-لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ عُبْسٌ كَوَاسِبُ مَا يُمَنَّ طَعَامَهَا

4-صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا إِنَّ المَنَايَا لَا تَطِيْشُ سَهَامُهَا

5-بَاتَتْ وأَسْبَلَ وَاكِفٌ مِنْ دِيْمَةٍ يَرْوِي الخَمَائِلَ دَائِماً تَسْجَامها

6-تَجْتَافُ أَصْلاً قَالِصاً مُتَنَبذاً بِعُجُوبِ أَنْقَاءٍ يَمِيْلُ هَيَامُهَا

---

[1]-ديوانه، ص217- 226.هدية الصّوار: متقدّمة القطيع، الفرير: ولد البقرة، بغامها: صوتها، المعفّر: سُحِبَ في التّراب، قهد: أبيض، تجتاف: تدخل، متنبذ: متنحٍ، عجوب: أطراف الرّمال، أنقاء: جمع نقا وهو كثيب الرّمال، الهَيّام: الرّمل اللّين، الجمانة: اللّؤلؤة، نظامها: خيطها، أزلامها: قوائمها، علهت: اشتدّ جزعها، تبلّد: تحيّر، النهاء: الغدير، صعائد: اسم موضع، أسحق: ارتفع، حالق: ممتلئ لبناً، رزء: صوت، الغضف: مسترخية الآذان، دواجن: متعودات ضاريات، قافل: يابس، اعتكرت: رجعت، مدريّة: القرون، كساب سحام: اسما كلبين، رقص: اضطرب، اللّوامع: الأرضون الّتي تلمع بالسّراب، الإكام: الجبال الصّغيرة، اللّبانة: الحاجة.

7-يَعْلُو طَرِيْقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِراً فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النّجُوْمَ غَمَامُهَا
8-وَ تُضِيءُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيْرَةً كَجُمَانَةِ البَحْرِيِّ سُلَّ نِظَامُهَا
9-حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأَسْفَرَتْ بَكَرَت تَزِلُّ عَنِ الثَّرَى أَزْلَامُهَا
10-عَلِهَتْ تَبَلَّدُ فِي نِهَاءِ صُعَائِدٍ سَبْعاً تُؤاماً كَامِلاً أَيَّامُهَا
11-حَتَّى إِذَا يَئِسَتْ وَأَسْحَقَ حَالِقٌ لَمْ يُبْلِهِ إِرْضَاعُهَا وفِطَامُهَا
12-وَ تَسَمَّعَتْ رِزَّ الأَنِيْسِ فَرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ والأَنِيْسُ سَقَامُهَا
13-فَعَدَتْ كِلَا الفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مَوْلَى المَخَافَةِ خَلْفُهَا وأَمَامُهَا
14-حَتَّى إِذَا يَئِسَ الرُّمَاةُ وأَرْسَلُوا غُضْفاً دَواجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا
15-فَلَحِقْنَ واعتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وتَمامُهَا
16-لِتَذودَهُنَّ وأَيْقَنَتْ ان لَم تَذُدْ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنَ الحُتُوْفِ حِمَامُهَا
17-فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسابِ وَضُرِّجَتْ بِدَمٍ وغُوْدِرَ فِي المكَرِّ سُحَامُهَا
18-فَبِتِلْكَ اذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَى وَ اجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا
19-أَقْضِي اللُّبَانَةَ لَا أَفَرِّطُ رِيْبَةً أَوْ أَنْ يَلُوْمَ بِحَاجَةٍ لُوَّامُهَا

يشبّه لبيد ناقته ببقرةٍ وحشيّةٍ ثكلى، أكل السّباع ولدها، وضلّت عن القطيع وحيدةً، قلقةً، تبحث عن ولدها حيثُ تركته، راجيةً أن تجده بين النّبات، فيصّور حركاتها وصوتها في مشهدٍ يبرز لوعتها وعمق حزنها؛ إذ تطوف مكرّرةً دورانها وبحثها المستمر في ذاك المكان، مصدرةً صوتاً وكأنّها تنادي صغيرها، وتلوم نفسها كيف غفلت عنه، وتتخيّل صغيرها الأبيض معفّراً بالتّراب، اجتمعت عليه الحيوانات المفترسة لالتهامه وتمزيقه، فهي تريد طعاماً يعينها على الاستمرار في الحياة، والبقرة تريد البقاء والاستمرار، وحماية أبنائها، لكنَّ نوائب الدّهر لا ترأف بها وبصغيرها، وتختار زمن غفلتها عنه لتسلبه، وتترك أمّه مفجوعةً نادمةً على انشغالها عنه، ويحذّر لبيد من سطوة الدّهر في لحظات الغفلة؛ إذ يجعله يجنّد المنايا لتنفّذ مآربه، ويصوّرها مثل مقاتلين يرمون الغافل بسهامٍ لا يمكن أن تخطئ هدفها، وكأنَّ لحظة الغفلة تحكم على صاحبها بخسارةٍ لا تعوّض، ومصابٍ لا يمكن دفعه أو التّصدي له.

لم تجد البقرة جدوى من بحثها عن ابنها، فاستسلمت لفكرة موته مرغمةً، وسيطر التّعب عليها بعد يومٍ مرهقٍ، فقضت ليلتها المؤلمة وحيدةً بينما الغيث يهطل من سحابةٍ دائمة العطاء، وجعلها تسقي (الخمائل) دائماً، ليحلَّ الخير بوفرةٍ في ذلك المكان، ويستقرّ استقراراً لا انقطاع فيه، فتحيا الكائنات في مكانٍ خصبٍ، وربّما أراد لبيد أن يعبّر عن فكرة استمرار الخير والحياة مهما بلغ مصاب المرء، أو رغب في حلول الخير الدّائم والغيث الوفير بديلاً من الصّحراء القاسية الجافّة، فحشد مفرداتٍ تدلُّ على عطاء الطّبيعة الكائنات خيراً لا حدود له (أسبلَ، واكف، ديمة، يروي، الخمائل، تسجامها)،.

لكنَّ البقرة لا تنعم بالخصب والخير بعد فقد ابنها، فتقرّر الرّحيل وتقطع مسافاتٍ، لا يثنيها عن هدفها ليلٌ مظلمٌ أو مطرٌ منهمرٌ قد يعيق سيرها على الرّمال، ويصوّر لبيد ليلها الدّامس (كفر النّجوم غمامها)، وكأنَّ الظّلام يخيّم عليها لحزنها على ابنها، لكنّه يجعلها مضيئةً، فكأنّها تقاوم مصابها، وتقتحم ذاك الظّلام مُحاوِلةً تبديده، ويشبّهها بالدرّة الثّمينة اللّامعة، الّتي استخرجها الغوّاص من قعر البحر، وأراد الاحتفاظ بها لذاته فجعل

لها خيطاً لتعليقها، لكنّها سقطت منه وسُحِب خيطها، وراحت تتدحرج على الأرض ، فسير البقرة يشبه حركة تلك الجمانة باندفاعها، وسرعتها، وقلقها، وضياعها.

أمّا تبدّد اللّيل الدّامس وحلول الصّباح فلم يمنحها الرّاحة؛ إذ بدأت تتعثّر في سيرها على الرّمال، وانحسار اللّيل قد يوحي بمحاولةِ بدء تماسكها لمواجهة الحياة من جديد، لكنَّ تعثّرها دلَّ على ضعفها وسيطرة المصاب عليها، فالأفعال (تَزِلُّ، عَلِهَت، تَبَلَّدُ) تخبر عن حال الأمّ الثّكلى الّتي لا يفارقها وجع الفقد، ولا ينقص مع مرور الوقت، وما أشدَّ ألمها حين تحرّكها غريزة الأمومة لترضع ابنها!، فتفقد الأمل من عودته حيّاً، لقد فقدت قدرتها على إرضاعه ومنحه غذاءً يبقيه حيّاً، وأكثرُ ما يؤلمها أنّها لم تفقد غريزتها تلك من بعد الاكتفاء من إرضاعهِ، ثمَّ فطامه.

و لا تقتصر هموم تلك البقرة على الثّكل؛ إذ يأتيها خطرٌ يزيد مصابها، فيبرز لبيد خوفها (تسمّعت)، فالفعل أفاد المبالغة في الحذر، والحرص على التقاط أيّ صوتٍ قد يهدّد استقرارها، ووجودها، وما خشيت منه حصل، ذلك أنّها سمعت صوت البشر(فراعها عن ظهر غيبٍ)، ويدلُّ الفعل (راعها) على حالة الرّعب والهلع الّتي سيطرت على البقرة لمجرّد سماع صوت الصّيادين، وقد توحي مفردة (الأنيس) بحالةٍ من الارتياح، والأمان، لكنّها حملت دلالة الرّعب للبقرة، فالأنيس هو من أودى بحياة ابنها ويهدّد وجودها، ويترك لبيد للمتلقّي أن يتخيّل أيّ حالٍ ستؤول إليه إن حاصرها أولئك الصّيادون، وبسرعةٍ تتّخذ قرار الخلاص من خطرهم، فتهرب مبتعدةً عن ذلك المكان، وكأنَّ خطرهم قد حاصرها من كلّ صوبٍ، فاضطربت تنشد البعد عنهم، ولمّا لم يستطع الصيّادون إيجادها أرسلوا كلابهم لتجدها، ويبدو أنّ كلابهم بارعةٌ في الصّيد، تمتلك آذاناً طويلةً مسترخيةً تمكّنها من الوصول إلى طريدتها بسهولةٍ، وهي شرسةٌ مدرّبةٌ على جلب الطّريدة للصيّاد، لحقت البقرة لاصطيادها، ولمّا وجدت نفسها أمام خصومٍ يمكنها مواجهتهم، استدارت معلنةً معركتها، معتمدةً على قرنيها الحادّين، فهما مثل رمحين طاعنَين تحمي بهما وجودها، وتدفع عن نفسها أعداء يريدون موتها، فإن لم تدافع بهما عن ذاتها فمصيرها الموت، ويذكر لبيد أسماء كلبين واجهتهما(كَساب، سُحام)، وكأنّها تختار من الكلاب من له شهرةٌ في الصّيد، فتقتلها لتحمي ذاتها وأبناء جنسها؛ إذ يدلُّ اسم الكلب (كساب) على عدم خسارته في معركةٍ سابقاً، وقدرته على جلب صيدٍ وافرٍ فلا يخطئ هدفه، وربّما أراد أن يظهر تفوّقها في تلك المعركة، فغدت تختار منهم خصماً وتقتله (تقصّدت).

أمّا (سحام)، فينعته بالجبن والفرار من أرض المعركة، ليعلن انتصار البقرة على الرّغم من تعداد خصومها في تلك المعركة.

لقد جعل لبيد البقرة صامدةً أمام أقسى الظّروف، تحمّلت ألم فقد الابن، وتابعت مسيرتها لتحافظ على بقائها، مواجهةً أعداءها، متسلّحةً بقوّة قرنيها، لقد أراد تلك الصّفات لناقته، فاستحضر البقرة وشبّه ناقته بها، ليضفي على ناقته قوّةً وصموداً، ذلك أنّه سيجتاز الصّحراء عليها، بكلّ أهوالها وصعابها، ويقاوم أقسى الظّروف الطّبيعيّة، وهي وسيلته لتحقيق أهدافه مهما كانت صعبة المنال.

إنّه يعوّل على القوّة والصّمود، وربّما كانت النّاقة معادلاً موضوعيّاً لجزئيّة من ذات لبيد، فاكتنزت صفاتٍ أرادها لنفسه، من مثل القوّة، والصّمود، والقدرة على تجاوز أقسى الظّروف النّفسيّة منها الفقد، ومقاومة الطّبيعة القاسية، والانتصار على الخصوم مهما بلغ عددهم وقوّتهم، فهو انتصار في معركة البقاء.

الخاتمة:

عُنيَ الشّاعران بوصف النّاقة، وفي سياق جعلها المثال الأقوى والأسرع لتجاوز الصّعاب، جاءا بقصّة البقرة الوحشيّة والثّور الوحشيّ، فلم تكن قصص معاركهما مع الكلاب والصّياد استطراداً؛ إذ جاءت عن قصدٍ ، ففيها تضمينٌ لصراع الإنسان في الحياة، حفاظاً على بقائه.

لقد ألحَّ الشّاعران الجاهليّان على السّرعة في وصف النّاقة والحيوان الوحشيّ، وكأنّهما يسابقان الزّمن ويحاولان أن يسبقاه، وينتصرا على الدّهر ومصاعبه، فقد كانت السّرعة في تلك القصص مواجهةً الفناء، تعين على تخطي الشّر، والخلاص من الموت، وهذه القضايا انعكاسٌ لرؤى الشّعراء آنذاك، فقد أقضّت قضيّة الموت مضاجعهم.

و يعبّر الشّاعران الجاهليّان عن إعجابهما بعنصر القوّة ومواجهة الخطر، فقد أبرزا في قصصهما مواجهة البقرة والثّور لخصومهما بالقرون الحادّة الّتي أعملت قوّتها في جسد أشرس الكلاب، وصوّر الشّاعران الثّور والبقرة في لحظة الانتصار بلونهما الأبيض الّذي يحمل دلالات الإشراق، والانتصار، ومعاني الاعتزاز، والافتخار بالنّصر.

إنَّ معركة الحياة تستوجب السّمو على ألم الفقد، ففي سبيل البقاء استطاعت البقرة الوحشيّة أن تسمو على أشدّ أنواع الألم قسوةً وهو ألم فقد الأبناء، وأكملت رحلتها على الرّغم من معاناتها فانتصرت على نوائب الدّهر، وحفظت بقاءها.

المصادر والمراجع:

– الأدب الجاهليّ (قضايا، وفنون، ونصوص)، د. حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2001م.

– البيزرة، *بازيار العزيز بالله الفاطميّ، نظر فيه وعلّق عليه محمّد كرد علي*، مطبوعات المجمّع العلميّ العربيّ، دمشق، 1953م.

– *الحياة والموت في الشّعر الجاهليّ*، د. مصطفى عبد اللّطيف جياووك، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرّيّة للطّباعة، بغداد_العراق، 1977م.

– *الخطاب الإبداعيّ الجاهليّ والصّورة الفنيّة (القدامة وتحليل النصّ)*، عبد الإله الصّائغ، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م.

– شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشّنتمريّ، تحقيق د. فخر الدّين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1970م

–ديوان لبيد بن ربيعة، شرح الطّوسيّ، قدّم له وو ضع هوامشه وفهارسه د. حنّا نصر الحتّيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط1، 1993م،

– الرّحلة في القصيدة الجاهليّة، د. وهب روميّة، مؤسّسة الرّسالة، دمشق، ط2، 1979م.

–شعرنا القديم والنّقد الجديد، د. وهب روميّة، عالم الفكر، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996م، ص322.

– *الصّيد والطّرد في الشّعر العربيّ حتّى نهاية القرن* 2هـ، د. عبّاس مصطفى الصّالحيّ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت_ لبنان، ط1، 1981م.

– *الطّبيعة في الشّعر الجاهليّ*، د. نوري حمودي القيسيّ، دار الأرشاد، بيروت، ط1، 1970م.

– *معركة الحيوان الوحشيّ في قصائد جاهليّة*، د. خالد يسير، دراسات في اللّغة العربيّة وآدابها، مجلّة نصف سنويّة دوريّة محكّمة تصدر عن جامعتي سمنان إيران_تشرين سوريا، العدد18، 2014م.